

أسس أولى أبحاث ما قبل التاريخ في شمال إفريقيا، منطقة الجلفة نموذجا.

د. أبركان كريم/ بلفاسمي سمير

معهد الآثار - جامعة الجزائر 2.

تقع منطقة الجلفة في قلب الأطلس الصحراوي الجزائري، عادة ما تسمى "بوابة الصحراء" نظرا لطابعها الجيومورفولوجي التلي والسهبي في الشمال والصحراوي في الجنوب، تبعد حوالي 300 كم جنوب الجزائر العاصمة. تزخر هذه المنطقة بعدد هائل من المواقع الأثرية، عل اختلاف تأريخاتها، تشهد على تعمير بشري مستمر في هذا المركب الإيكولوجي منذ أولى هجرات الإنسان القديم إلى شمال إفريقيا، مع بداية العصر الحجري القديم.

1. تاريخ الأبحاث في المنطقة:

تطرقت مقالات قليلة إلى الجانب الأثري لمنطقة الجلفة خلال النصف الثاني من القرن 19، التي خصصت جانبا لآثار ما قبل التاريخ، على غرار روبرو Reboud الذي علق على المعالم الجنائزية الموجودة بالضواحي القريبة لقرية الجلفة¹.

اهتم هارتماير Hartmayer كذلك بالمعالم الجنائزية لضواحي الجلفة من حيث تخطيطها ومرفقاتها ودرجة حفظها، كما درس موقعا أثريا ذات طبقة بضواحي قرية مسعد، الذي يحتوي على صناعة حجرية وبقايا عظمية حيوانية، بالإضافة إلى النقاط لبعض الصناعة الحجرية الصوانية، منها رؤوس سهام، في ضواحي قريتي الجلفة ومسعد². كما ذكر بيرنار Bernard معالم جنائزية ونقاط أثرية ذات صناعة حجرية على السطح في أماكن عديدة من منطقة الجلفة³.

شكل أطلس فزال Gsell الأثري قفزة نوعية في إبراز أهمية منطقة الجلفة (جدول 1)، على غرار مناطق أخرى، من حيث رصيدها الأثري عموما ومخلفاتها الراجعة لما قبل التاريخ خصوصا، إذ قام بجرد مفصل للمواقع والنقاط الأثرية على خرائط الجزائر الشمالية بسلم 1/200 ألف، مع نصوص توضيحية قيمة⁴.

¹ Reboud (Dr.) (1856 a). Monuments celtiques de djelfa. *Revue africaine* 1 (2), 138-139.

Reboud (Dr.) (1856 b). Notes archéologiques sur les ruines de djelfa. *Revue africaine* 1 (1), 25-31.

² Hartmayer (Cap.) (1885). Notice sur le cercle de djelfa. *Revue africaine* 29 (170), 141-150.

³ Bernard (Cap.) (1886). Observations archéologiques faites dans la province d'alger pendant l'hiver 1884-1885. *Revue d'ethnographie* 5, 241-261.

⁴ Gsell, S. (1911). *Atlas archéologique d'algérie*. Ed. A. Jourdan, Paris.

بوسعادة (36)	قلت السطل (35)	شلاله (34)
عين الريش (47)	الجلفة (46)	زينة (45)

جدول 1 - عرض لأسماء خرائط قزال الأثرية المعنية بها منطقة الجلفة.

ارتكزت الأبحاث، خلال النصف الأول من القرن 20، على جرد ووصف محطات الفن الصخري، حيث قام فلامون Flamand مثلاً بدراسة مفصلة للفن الصخري لمحطتي ضاية السطل و قصر زكار مع حوصلة لتاريخ أبحاث منطقة الجلفة عن الفن الصخري⁵. ذكر بيرري Perret بدوره ثلاث محطات للفن الصخري في خريطته للنقوش والرسومات الصخرية في شمال إفريقيا (شكل 1) وهي: ضاية السطل و زينة و قصر زكار⁶. تطرق فوفريي Vaufrey كذلك، في كتابه عن الفن الصخري في شمال إفريقيا، إلى المحطات التي تحتويها المنطقة ومضامينها⁷. أما بيلان Bellin، فقد تناول الفن الصخري الموجود بمرتفعات أولاد نايل، حيث جرد ورفع ووصف النقوش الصخرية التي اكتشف بعضها والبعض الآخر بيرري سنة 1937، على غرار محطتي صافية بورنان و ضاية السطل⁸.

استمرت الأبحاث بالمنطقة، خلال النصف الثاني من القرن 20، مع محاولة التخلص من عادة اكتشاف ووصف محطات الفن الصخري فقط من دون شواهد أثرية أخرى، إذ حاول لوتيلو Lethielleux جرد مواقع ما قبل التاريخ وفجر التاريخ الموجودة بمنطقة الجلفة⁹، كما اهتم غريبينار Grébénart بآثار الوجهين القفصي والنيوليتي المتناثرة في ضواحي مسعد¹⁰ وكذا مخلفات العصر الحجري الحديث في ضواحي مدينة الجلفة¹¹.

⁵ Flamand, G. B. M. (1914). Deux stations nouvelles de pierres-écrites (gravures rupestres) découvertes dans le cercle de djelfa, sud-algérois. *L'anthropologie* 25, 433-458.

⁶ Perret, R. (1937). Une carte des gravures rupestres et des peintures à l'ocre de l'afrique du nord. *Journal de la société des africanistes* 7 (1), 107-123.

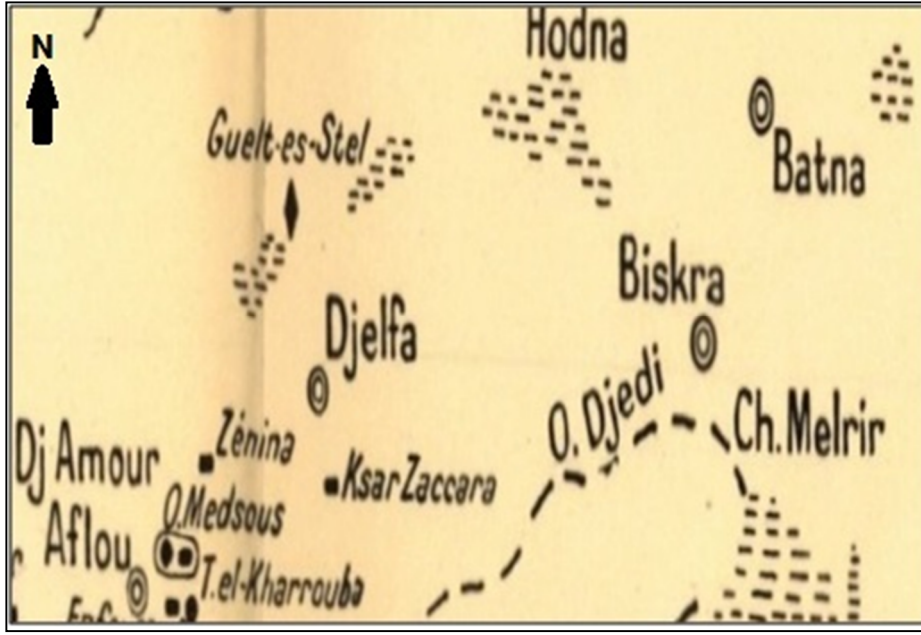
⁷ Vaufrey, R. (1939). *L'art rupestre nord africain*. Ed. Masson, Paris.

⁸ Bellin, P. (1957). L'art rupestre des ouled naïl. *B. S. P. F.* 54 (5-6), 299-306.

⁹ Lethielleux, J. (1965). Vestiges préhistoriques et protohistoriques de la région de djelfa. *Libyca* 13, 249-268.

¹⁰ Grébénart, D. (1969). Ain-naga, capsien et néolithique des environs de messad (département de médéa). *Libyca* 17, 135-197.

¹¹ Grébénart, D. (1970). Problèmes du néolithique près de ouled djellal et de djelfa : botma-si mammar et safiet bou rhenan. *Libyca* 18, 47-68.



شكل 1 - خريطة مبسطة لأماكن تواجد النقوش والرسومات الصخرية بمنطقة الجلفة¹².

حظي الفن الصخري، خلال هذه الفترة، بدراسات عديدة، حيث تطرق لوت Lhote مثلا إلى التمثيلات الصخرية بالمنطقة في كتابه عن النقوش الصخرية في الجنوب الوهراني¹³. أما الباحثان هوارت Huard و ألار Allard، فقد قاما بجدد ودراسة كل هذه التمثيلات الموجودة في 43 محطة أثرية¹⁴. أما الباحثة حشيد، فقد حاولت وضع تأريخ نسبي لهذه النقوش¹⁵. خصص لوت Lhote بدوره كتابا مفصلا وشاملا عن دراساته للنقوش الصخرية في مرتفعات أولاد نايل وضواحي الجلفة¹⁶.

يعتبر عمل الباحث رابحي¹⁷ من أحدث الأبحاث عن المنطقة، والذي اعتمد فيه على جملة من المناهج الجديدة، والمتبعة في علم الآثار الحديث، المتمثلة أساسا في الوصول إلى استنتاجات عن حياة الإنسان القديم اعتمادا على تحليل أثري منبثق من تحليل جغرافي وفضائي، ناتج بدوره عن معالجة معطيات دراسة ميدانية بمقاربة جغرافية بحتة، عن طريق استعمال تطبيقات نظام الإعلام الجغرافي.

¹² مقتبسة من: Perret, R. (1937). Une carte des gravures rupestres et des peintures à l'ocre de l'Afrique du nord. *Journal de la société des africanistes* 7 (1), 107-123.

¹³ Lhote, H. (1970). *Les gravures rupestres du sud-oranais*. Arts et métiers graphiques, Paris.

¹⁴ Huard, P., Allard, L. (1976). Les figurations rupestres de la région de Djelfa. Sud-algérois. *Libyca* 24, 67-125.

¹⁵ Hachid, M. (1983). La chronologie relative des gravures rupestres de l'Atlas saharien (Algérie) et la région de Djelfa. *Libyca* 30-31, 143-164.

¹⁶ Lhote, H. (1984). *Les gravures rupestres de l'Atlas saharien. Monts des Ouled Naïl et région de Djelfa*. Off. du Parc Nat. du Tassili, Alger.

¹⁷ رابحي، م. (2012). التعمير البشري لفجر التاريخ بالأطلس الصحراوي، منطقة الإدريسية نموذجا، مقاربة أثرية جغرافية. أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في آثار ما قبل التاريخ. معهد الآثار بجامعة الجزائر 2.

استطاع هذا الباحث، من خلال نتائج عمله الرائد في الجزائر، وضع نموذج موثوق به للدراسات الأثرية بمقاربة جغرافية أو ما يسمى بعلم الآثار الجغرافي (Archéogéographie)، وإزالة الغبار عن إشكاليات معقدة عن التعمير البشري خلال فترة فجر التاريخ في منطقة الإدريسية خصوصا والأطلس الصحراوي عموما.

نشير كذلك إلى مشروع البحث الذي تحظى به منطقة عمورة (جنوب الجلفة) منذ 2013، تحت قيادة الأستاذ الباحث مروان رابحي، عن التعمير البشري خلال البلايستوسان والهولوسان، حيث يتمثل في القيام بعمليات مسح أثري في هذه المنطقة التي تبلغ مساحتها 800 كم²، بغرض اكتشاف وجرد مواقع أثرية وكذا القيام بأصبار وحفريات إن استدعى الأمر ذلك¹⁸.

من خلال ما سبق، نرى أن أبحاث ما قبل التاريخ في منطقة الجلفة عموما متميزة بتوجيهها أساسا صوب آثار ما بعد العصر الحجري الحديث (فن صخري خصوصا ومعالم جنائزية بدرجة أقل) في حدود المراكز الحضرية وضواحيها فقط كالجلفة ومسعد، كما اتصفت بنوع من السطحية حيث اقتصر كثير منها بالإشارة إلى اكتشاف ووصف المواقع الأثرية فقط من غير دراسة ولا تعمق، رغم المجهود الجبار الذي قام به Gsell والذي يعتبر نقطة تحول إيجابية في تاريخ البحث الأثري بشمال إفريقيا عموما، كيف لا وقد قام بجرد كل ما رآه أثري في شمال الجزائر بأكملها.

نستنتج إذن أن هذه الأبحاث لم تجب على الإشكاليات العديدة والمتعلقة بطبيعة التعمير البشري وتوزيعه الفضائي عبر الزمن (Lecture spatio-temporelle) منذ بداية العصر الحجري القديم في المنطقة، يتجلى ذلك مثلا في عدم وجود دراسات عن:

- العلاقة المحتملة بين مواقع الفن الصخري فيما بينها، وبين مواقع الفن الصخري والمعالم الجنائزية.
- طبيعة العلاقة الكرونوثقافية بين مختلف التعميرات البشرية التي عرفت هذه المنطقة، لا سيما التطور الثقافي: عصر حجري قديم/ عصر حجري حديث، وعصر حجري حديث/ فجر تاريخ (استمرار أو تحول أو انقطاع).
- دور التغيرات المناخية في حركية هذا التعمير، خاصة مع نهاية البلايستوسان وبداية الهولوسان.
- حيثيات جرد موحد لجميع المواقع الأثرية، قصد محاولة التوصل إلى قراءة شاملة للتعمير البشري في المنطقة عن طريق تحليل فضائي.

¹⁸ Rabhi, M., Aberkane, K., Bellahreche, H., Belkacemi, S. (2016). Recherches Préhistoriques dans la Région de Amoura (Djelfa, Atlas Saharien oriental). *Ikosim* 5 (Sous presse).

2. أسس أولى أبحاث ما قبل التاريخ في شمال إفريقيا:

لم تكن بدايات الأبحاث الأثرية عموماً، وأبحاث ما قبل التاريخ خصوصاً، بشمال إفريقيا ناتجة عن تفكير مسبق ولا عن اختيار مقصود، وإنما نتيجة مباشرة للمد الاستعماري. يتجلى ذلك في العلاقة الطردية المتينة بين تقدم الأبحاث، لاسيما فيما يخص جمع المعطيات، ووتيرة التوسع¹⁹.

مرت الأبحاث الأثرية الأولى بمرحلة تمهيدية، تمثلت في الاستكشافات الفرنسية الكبرى²⁰ التي كانت تهدف إلى جمع أكبر قدر ممكن من المعارف المتعلقة بالمحيط، بمفهوميه الفيزيائي والأنثروبولوجي، والتي استنتج على إثرها الفرنسيون أنه بالإضافة إلى الغزو فإن هذه البلاد مصدر علم ومعرفة²¹.

ليس لأبحاث ما قبل التاريخ في الجزائر إشكالية محددة، نظراً لارتباطها الدائم بالاحتلال، إذ وجه الاهتمام إلى الإكتشافات التي لها صدى في أوروبا، وإلى دعم فكرة تواجد مشروع ومنطقي لفرنسا في شمال إفريقيا²²، فاعتمد فيرو Féraud مثلاً على تسمية المعالم الميفاليتية التي عثرت في منطقة الجلفة بالسلتية في ترسيخ نظرية تواجد السلتيين قديماً بشمال إفريقيا²³، كما أقر الطبيب روبرو Reboud أن دولمانات هذه المنطقة قبور لجنود من السلت (البروتون أو الفول) بعد تصنيفه للفأس الذي اكتشفه قريباً بالنمط السلتي²⁴.

تجدر الإشارة أن هذه النظرية السلتية لم تقنع كل المجتمع العلمي آنذاك، إذ جعل لوتورنو Letourneux مثلاً من هذه المعالم ذات أصول محلية، كون عددها كبير جداً وانتشارها في الفضاء لا يسمح أن تكون من صنع جيش فولي صغير العدد وإنما آثار لأجيال متعاقبة من السكان الأصليين لشمال إفريقيا²⁵.

¹⁹ Coye, N. (1993). Préhistoire et protohistoire en algérie au XIXème siècle : les significations du document archéologique. *Cahiers d'études africaines* 33 (129), 99-137 (p. 99).

²⁰ Camps, G. (1961). *Aux origines de la berbérie, monuments et rites funéraires protohistoriques*. Arts et métiers graphiques, Paris.

²¹ Coye, N. (1993). Op. cit., p. 100.

²² Coye, N. (1993). Op. cit., p. 102 et p. 105.

²³ Féraud, L. (1864). Monuments dits celtiques dans la province de constantine. *Rec. des not. et mém. de la soc. archéo., hist. et géog. de constantine* 8, 108-132 (p. 114).

²⁴ Reboud (Dr.) (1856 a). Op. cit.

²⁵ Bourguignat, J. R. (1868). *Souvenirs d'une exploration scientifique dans le nord de l'afrique. IV : Histoire des monuments mégalithiques de roknia, près d'hammam-meskhouitin*. Challamel aîné, Paris.(p. 17).

وضعت أبحاث ما قبل التاريخ في شمال إفريقيا كذلك كامتداد للأبحاث الفرنسية في نفس المجال²⁶، حيث أثر ذلك سلبا على الموضوعية العلمية، حيث اعتمدت منهجية العمل على تثمين كل الآثار الشبيهة بما وجد بأوروبا²⁷.

تقطن بعض المهتمين، مع تعدد الأبحاث، لهذا التشبيه المفرط وعمدوا إلى التشكيك في كل المصطلحات المدعمة لهذا التوجه²⁸، على غرار لوتورنو Letourneux²⁹ و دوزور Desor³⁰ و كارتلهاك Cartailhac³¹ و كاريير Carriere³² و دوميرث Doummargue³³.

يمكن القول أن الأبحاث الأولى في هذا المجال انقسمت إلى ثلاثة محاور رئيسية وهي على الترتيب: المعالم الجنائزية والبقايا العظمية الإنسانية والصناعة الحجرية. إذا كانت المقاربة المنتهجة في المحور الأول اعتمدت على إنساب هذه المعالم إلى محتل أوروبي قديم، فإن دراسة البقايا العظمية الإنسانية قوربت بتثنيها بنظيرتها الأوروبية مع تأويل إنسابها لأصول أوروبية كذلك. أما الصناعة الحجرية فوضعت مترامنة مع الصناعة الأوروبية، مع إمكانية تأخيرها طبقا إن أمكن.

نستنتج أن دراسات ما قبل التاريخ في شمال إفريقيا، خلال العقود الأولى من ظهورها، تميزت بالانحياز المطلق خدمة لمصلحة الاستعمار الفرنسي، استمر الحال كما هو إلى غاية استقلال الجزائر، إن لم نقل إلى يومنا هذا بالنظر إلى بعض الأبحاث الحديثة، وليست جميعها، التي مازالت تضع هذه الدراسات القديمة كقاعدة موثوق بها في التحليل، عن قصد أو دونه.

²⁶ Coye, N. (1993). Op. cit., p. 101.

²⁷ Bourguignat, J. R. (1868). Op. Cit., p. 36 et p. 94.

Faidherbe, L. (1869). Sur les tombeaux mégalithiques et sur les blonds de la lybie. *Bull. de la soc. anthr. de paris (2^{ème} série)* 4, 532-542 (p. 532).

²⁸ Coye, N. (1993). Op. cit., p. 112.

²⁹ Letourneux, A. (1866). Monuments antéhistoriques de l'algérie. *Matériaux pour l'histoire positive et philosophique de l'homme* 2, 524-526.

³⁰ Desor, E. (1866). Migrations du sud au nord. *Matériaux pour l'histoire positive et philosophique de l'homme* 2, 524.

³¹ Pallary, P. (1888). Les monuments mégalithiques de l'arrondissement de bel-abbès. *Congrès de l'AFAS d'oran* 1, 199-200 (p. 199).

³² Carriere, G. (1888). Stations préhistoriques du département d'oran. *Congrès de l'AFAS d'oran* 2, 354-360.

³³ Doummargue, F. (1892). Notice sur une station préhistorique d'ain-el-hadjar. *Bull. de la soc. de géog. et d'archéo. de la prov. d'oran* 12, 547-550.

Doummargue, F., Poirier, E. (1894). La grotte préhistorique de l'oued saïda. *Bull. de la soc. de géog. et d'archéo. de la prov. d'oran* 14, 105-127.